أبو طبر

أجمل ابتسامة...

تلك التي ترسمها على محيا والديك

حين أزور بغداد التي أعشقها وأحبُ عبق هوائها حتى وإن كان ساخناً لاهبًا؛ أدور في أزقتها وحواريها الضيقة الملتوية كأفعى الغابات، أبنية البيوت ذات الشناشيل المزركشة التاريخية الجميلة على جانبي الطرق تكاد تنطبق أو تلتصق بعضًا ببعضها، وتشكل أفياء رائعة تجلب نسمات باردة تنعش المارة بسخاء، ظهرًا أسير في الطرقات ولا يفوتني التقاط كل ما يصدر من كلام من داخل البيوت المغطاة أبوابها بستائر قماشية ملونة، رغم انتصاب هذه الستائر إلا أني أستطيع أحياناً وبغريزة الصياد الماهر وعبر الأبواب المفتوحة في لحظات خاطفة تتطاير أثناءها الستارة التقاط لقطات حية رائعة، كأن تكون لسيقان بيضاء ملفوفة لامرأة مُكتنزة تتربع على حوض غسيل الملابس، أو نظرة سريعة عابرة لنهود سمراء تائهة، لمراهقة رشيقة تحاول التقاط شيء من الأرض.

أعشق التجوال والسير في هذه الطرقات، إنها طقسي المقدس الثابت والمفضل، الناس تهرب من أشعة الشمس الحارقة وأنا أخرج من بيتي كي أتفسح في شوارع بغداد الجميلة أتبضع بعض الأشياء من محلات شارع الرشيد والسعدون، وحين أشعر بالعطش أدخل إلى إحدى بارات شارع الخيام المُكيفة الباردة، وأغطس كهارون الرشيد في أحضان كرسي وثير، منصت إلى الألحان الخالدة لكوكب الشرق المطربة أم كلثوم وهي تصدح بصوتها الشجي بأغنية (ليلة حُب) التي أعشقها، أحتسي زجاجتين من البيرة المُثلجة المنعشة نوع

(فريدة) اللذيذة المذاق مع السلطة المكونة من أنواع مختلفة من الخضار الطازجة، مُضاف إليها زيت الزيتون البلدي والخل المصنوع من التمر طيب المذاق، أنهضُ مُنتعشًا قافلاً إلى البيت، مارًا بمنطقة سوق حنون الشعبية، حيث لا تفوتني إطلاقًا متعة مشاهدة بيتنا القديم الذي يقف بتواضع بعد أن بدا لي سابقًا عالي البنيان شامخ عملاق.

في بداية عام ١٩٧٤ حين أكملت النصف الأول من سنة دراستي الجامعية الأولى في الاتحاد السوفيتي؛ ضربت الغربة أطنابها في رأسي، وزاد شوقي لأهلي، خصوصًا لأمي وأبي، وقبيل العطلة الشتوية قررت بشكل مُفاجئ ولأول مرة أن أزور العراق دون أن أخطرهم، وذلك لأن وسيلة الاتصال الرئيسية كانت عبر الرسائل البريدية التي كانت تستغرق وقت طويل.

حزمتُ أمري وأمتعتي وضعت الهدايا التي هيئتها لأهلي في حقيبتي الصغيرة، استقليت مع زملائي الطائرة المتجهة إلى بغداد، وصلت الطائرة مطار بغداد الدولي في ساعة مُتأخرة من الليل، تسلمتُ حقيبتي الصغيرة وبسرعة خارقة اتجهت نحو بوابة الخروج لكن رجل الأمن استوقفني ولم يسمح لي بالخروج مما أدهشني كثيرًا.

كوني أحمل حقيبة صغيرة فإن البواب اعتقد أن خروجي مؤقت وسوف أدخل صالة المطار ثانيةً لأستكمل تَسلم باقي حقائبي، أخبرته أني سأخرج ولن أعود ثانيةً، لأني ببساطة لا أملك أية حقائب كبيرة أخرى سوى هذه التي في يدي، ورجوته أن يدعني أذهب لأني في شوقٍ كبير لأهلي، حينها أفرج عني فتسللت بسرعة كالأرنب المذعور.

اتخذت مكاني في المقعد الأمامي لإحدى سيارت التاكسي بعد أن ودعت أحد أصدقائي باللغة الروسية وسمعنا سائقها، حييت سائق سيارة الأجرة بكلمة (هالو) فاعتقد أنني أجنبي وبدأ يُحيك خططه الجهنمية كي يستغلني بأبشع صورة، إذ أنها فرصته الذهبية، أخذ يتخيل أنه سوف يقبض أجرته مُضاعفة

وبالدولار الأخضر، لكنه تفاجأ كثيرًا عندما سألته عن الأوضاع في بغداد باللهجة العراقية الدارجة، اندهش بقسوة حين سمع لهجتي البغدادية الأصيلة حتى النخاع، فلم يتمالك نفسه فابتسم ثم ضحك ملئ شدقيه، وأخبرني بما كان يضمر لي من خُبث، فأطلقنا سويًا ضحكة مُجلجلة وصلت أعالي السماء، وانطلق بي كالصاروخ إلى البيت.

عمارة البغدادي وتقع في شارع السباع في بغداد، سميت على اسم مالكها التاجر البغدادي المحُسن الثري طيب القلب الذي كان يوزع المال ولحوم الأضاحي على الفقراء والمُحتاجين، صبيحة كل عيد إسلامي، حينها كنت أذهب وأشقائي الأصغر مني سِنًا إلى مكتبه الذي لا يبعد أكثر من مائة متر عن مكان سكننا، باتجاه شارع الشيخ عمر، نتزاحم مع باقي الأطفال لغرض الحصول على بضعة دراهم، وكانت كبيرة القيمة لدينا، إذ تُعطينا قدرة كبيرة لشراء الحلويات خلال أيام الأعياد، نفرح بها كثيرًا، لكننا لم نكن نستطيع الحصول على قطعة من اللحوم كونهم اقتصروا توزيعها على الكبار.

هذه العمارة السكنية كأنها زُرعت في غير محلها، تمَّ بنائها في حي صناعي يعجُ بالحركة والحياة والعمال ذوي السواعد السمر وأعمال الحدادة الشاقة، الكل منهمك في عمله بتطويع الحديد وجعله أنتيكًا حيث تُسمع أصوات مكائن قطع الحديد المزعجة وأزيز اللحام مع أشعته البراقة التي تعمي الأبصار وثرثرة حَمالي نقل البضائع، الكل هنا في حركة دؤبة والحياة صاخبة تحت أشعة الشمس اللاهبة، ولا مجال للسير نهارًا إلا وعلى المرء أن يشق طريقه بدقة متناهية بين الحديد والنار، أو أن يصطدم بعربة نقل أو قطعة حديد ناتئة.

تحديدًا هنا عشت مع عائلتي ردحًا من الزمن، ولسنوات طوال نتنقلُ بين رُكام الحديد ورائحة غازات اللحام نهارًا، وعبق الزهور ورائحة الأشجار ليلاً، تصالحنا جيدًا مع أصحاب وعمال محلات الحدادة التي تقع أسفل كتفي عمارة البغدادي، وكانوا طيبين ذو أخلاق عالية قدروا حالنا واحترموا الجيرة.

لفظتني سيارة التاكسي في أولى ساعات الصباح عند مدخل عمارة البغدادي، نقدت السائق الماكر أجرته بالدينار العراقي الذي كنت أحتفظ به، ومضى على رزقه، مستندًا على حقيبتي الصغيرة تخطيتُ بوابة العمارة التي كانت والحمد لله مفتوحة بشكلٍ دائم، بتثاقل صعدت السلم الملتوي، وأخيرًا وصلت إلى بوابة بيتنا الدافئ، طرقت الباب بخجل وهدوء فلا مُجيب، طرقت ثانية بصورة أقوى فلم تظهر أية إشارة للحياة، كررت ثالثة ثم ناديت: افتحوا الباب، فسمعت من الداخل أصوات وتمتمات غريبة، ثم صرخة بصوت صارم فجائني صوت أمي الحنون قائلاً: (دخيلك يا هيي)[1]، فارتاح قلبي ورق لها وله كثيرًا...

– من الطارق ليلاً؟

أجبت بسرعة هائلة:

– أنا يا أمي.

– من أنتَ؟

– أنا عباس افتحي الباب رجاءً...

حينها كررت سؤالها:

– وأي عباس أنت؟

– أنا عباس ابنك يا أمي، افتحي لي الباب حبيبتي لأني متعب للغاية وفي شوق كبير لكم.

هنا خرج صوت أبي مُعلنًا أنه يحمل مُسدس أسود اللون، متوعدًا وسائلاً:

– من أنت يا هذا، القادمُ لنا في منتصف هذا الليل الحالك؟

قالها بصوتٍ اهدأ وأكثر رقة، ولكن جاء حازمًا وأضاف:

:- دخيلك يا هيي: هيي وتعني الحي وهي اسم الله بالمندائية، أما دخيلك يا هيي فتعني أني في حمايتك يا الله.

– ما الذي أتى بك ليلاً إلى هنا؟

أعتقد أنه كان يريد التحدث معي كي يتعرف على صوتي ويطمئن تمامًا قبل أن يفتح الباب لي.

– نعم يا أبي أنا عباس ابنكم، لقد جئت لتوي من روسيا لزيارتكم ورؤية وجوهكم الطيبة، وكلي شوق إليكم فافتح يا أبي ولا تخف... أنا متعب جدًا، افتح الباب أرجوك.

فتح أبي الباب ببطء شديد وهدوء تام، وظهرت لي كُتلة بشرية ضخمة رؤوسًا وأجسادًا كثيرة متراكبة تجمعت في فراغ واحد بعيون شاخصة حذرة، وأيادي تحملُ أسلحة بيضاء متأهبة للقتال، ولكن أبي لم يكن يحمل مسدس، فهو كان كعادته يبغي التحذير والترهيب فقط.

لقد كانت مُفاجأة كبرى لي ولهم، لم يُصدق أهلي عيونهم من شدة الصدمة أني ابنهم بلحمي ودمي أقف أمامهم حيًا أرزق، إذ أنهم اعتقدوا أني احتضن الدببة البيضاء في القطب الشمالي البعيد والقارس البرودة في تلك اللحظة، حاولت وحاول أهلي استيعاب كل شيء بسرعة وهم ينظرون إلي بفضول وريبة.

ما أن تجاوزت بوابة بيتنا حتى غديت كدمية تتقاذفها أيادي الأطفال بعطفٍ وحنان، احتضنتني أمي، قبلتني بمقدار حرارة الشمس، بشكلٍ لا يُصدق وضعتني بين ثنايا روحها والوجدان، شمتني بعنف كأنها تحاول الغور في مسام طفولتي، شممت رائحتها العطرة التي اعتادت أن تضعها، فعادت روحي المُعذبة والتحقت بجسدي التعب، برقة سحبني أبي إلى حضنه، عانقني بحرارة وسكب في كل حنان الكون وحبهُ، وهكذا الحال كان الحال مع أشقائي وشقيقاتي.

ما أن انتهت طقوس التقبيل الشهيرة عند العراقيين حتى بدأوا بتوضيح ما جرى عند باب البيت، وقالوا إنهم اعتقدوني المدعو (أبو طبر) وكركروا طويلاً،

حصل أن تزامنت زيارتي غير المُعلنة إلى أهلي؛ بتلك الأيام الاستثنائية التي مرت على العراقيين وأحدثت موجة هائلة من الرعب في نفوسهم.

وأسردُ عليكم حكاية أبو طبر الشهيرة، والتي هزت بغداد وأثارت الرعب والترويع في نفوس أهاليها، حين قام شخص يدعى (حاتم كاظم الهضم) من أهالي الحلة/ قضاء المسيب، تسانده زوجته (ساجدة على محمد)، يساعده عدد من أقاربه بعدة جرائم بشعة وغريبة على المجتمع العراقي، تتلخص عندما يتسلل أفراد هذه العصابة الإجرامية إلى أحد البيوت، فيقومون بقتل جميع أفراد العائلة، عن طريق ضرب الضحايا بقضيب حديدي، كما أن أبو طبر كان يحمل معه مسدس وقفازات، ولكن ما أشيع عنه أنه كان يقتل بالطبر (الساطور) – الآداة الخاصة بتقطيع لحوم الحيوانات – كان من باب الإشاعات التي تمَّ تداولها وانتشارها كالنار بين الناس، استمرت الإشاعات طويلاً حتى أنني سمعتُ أن عصابة أبو طبر بعد أن تقوم بأعمال القتل؛ فإنهم يوغلون في جريمتهم بتقطيع أجساد القتلى إلى أوصال بطريقة مُقززة وغير إنسانية تمامًا.

إثر تكرار هذه الحوادث اتخذت السلطات العراقية الرسمية إجراءاتها الأمنية المُكثفة من حملات تفتيش كبيرة طالت جميع بيوت بغداد، بحثًا عن أوصاف الشخص المشتبه به، حتى وصلت إلى إعلان منع التجوال الشامل في بغداد وإغلاق مؤقت لمطار بغداد الدولي في وجه الملاحة الجوية، مع استقدام فرق خبراء روس وفرنسيون في مجال مكافحة الجريمة، حتى تمَّ إلقاء القبض عليه بتاريخ ٣٠-٣-١٩٧٤.

بعد سنين عديدة سمعنا شائعات تُفيد أن الحكومة أو المخابرات العراقية هي من كان يُدير هذه العملية عن قصد، لتصفية خصوم سياسيين إثر محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها (ناظم كزار)، ولكن تبقى الحقيقة كما تعودنا في مجتمعاتنا العربية غائبة أو مُغيبة، في السنوات الأخيرة قد تمَّ عرض قصة المجرم (أبو

طبر) في مسلسل تلفزيوني تداول الأحداث، مع فبركة واضحة في بعض جوانبها وفق منظور السلطة الحالية.

ما أن انتهى طقس التقبيل العظيم، حتى بدأت مراسم الاستقبال الرئاسية الرسمية، مراسم الأسئلة، حيث انهالت عليَّ ملايين الأسئلة والاستفسارات العجيبة والغريبة، والتي كنت أجيب فقط على بعض منها لشدة تعبي وإرهاقي، ولكن بعد أن هدأنا جلسنا على فراش نوم والديَّ أحاطني الجميع يحملقون في غير مُصدقين عيونهم، أمي التي كانت لها طريقة رائعة في التعامل مع البشر والأشياء، إذ لم تدع لحظة إلا وتضع يديها على رأسي، وهذه الحركة التي أعشقها منها، ثم تقبلني وتدغدغني كطفل وتقول لي:

– يا صغيري الحبيب كيف أنت وكيف صحتك ودراستك؟ هل تأكل جيدًا، أرى أن الهزال لا زال يأخذ منك مأخذًا.

لا تدعني أجيب بل تواصل كلامها العذب، في عيناها يتلألأ السائل المُحيط بحدقاتها من شدة غبطتها، وتطلقان شعاعات الحب والرأفة بي، تزيدني راحة وسعادة.

– احكِ لنا يا بُني كيف وجدت روسيا؟ هل أهلها ناس مثلنا أم يختلفون عنا؟

سألني أبي بابتسامة مع بعض الجدية التي بانت على عينيه:

– نعم يا أبي؛ الروس [1] أناس دمثي الأخلاق مثلنا، طيبون متواضعون وكرماء جدًا إلى حدٍ كبير، رغم إمكانياتهم المالية المحدودة، إذ أن راتب العامل الشهري لا يتجاوز تسعون روبل، وهذا غير كافي بالمرة، ولكن لديهم قدرة خارقة على خلق الحياة وإيجاد لحظات حلوة من السعادة فيها... حين تزورهم يملأون الطاولة بكل ما لذ وطاب من مشرب ومأكل، ولا يقبلون بتواضع الضيف، بل

١– يطلق العراقيون كلمة (الروس) على جميع سكان الاتحاد السوفيتي السابق بمختلف بلدانهم وقومياتهم.

يعاملوه كأحد أفراد العائلة، إنهم بيض البشرة وشعرهم أشقر، أما نسائهم يا أبي الحبيب فحدث دون حرج، جميلات بشكل مُلفت وصارخ، رشيقات كالغزال البري، هُن غاية في التواضع، طيبات ومتراضيات مع أنفسهن، أما موسكو مدينة القياصرة فهي مدينة شاسعة الكبر رائعة التنظيم، شوارعها نظيفة عريضة ومستقيمة، أبنيتها القديمة ذات طراز قيصري مُميز، أما الحديثة التي بُنيت بعد الحرب العالمية الثانية منها؛ فهي على شكل مكعبات متشابهة، المدينة تحتوي على الكثير من الحدائق والمتنزهات والمسارح ودور السينما، كما أن تماثيل عُظمائهم تُزين ساحاتهم الكبيرة الكثيرة، محلات التبضع فيها كبيرة جدًا ذات طوابق عديدة، لا يكفيك يوم كامل للتجوال في جميع أقسام إحداها، نعم إنها مدينة فريدة من نوعها كل شيء فيها كبير وعملاق وشامخ.

يضيف أبي:

– وكيف تجري أحوال دراستك، أتمنى أنها تسير على ما يرام.

– نعم يا أبي دراستنا تجري على قدمٍ وساق، ولقد بدأت التكلم الروسية جيدًا، وإن شاء الله أرفع رأسكم بتفوق جديد بعد دعواتكم وصلواتكم لي.

قلتها وابتسمت، وجدتها فرصة طيبة لأريهم الأشياء التي ابتعتها لهم من كييف وموسكو، بدأت رحلة توزيع الهدايا ففرحوا بها كثيرًا، في حين طرتُ أنا فوق أجنحة المحبة والحنان وطار تعبي من الفرحة الكبيرة والسعادة الأكبر.

كنت قد ابتعت من مطار موسكو الكثير من قناني المشروبات الكحولية الصغيرة المُختلفة لرغبتي أن يقوم أبي بتذوقها والتلذذ بها، فاقترحت عليه أن نشرب كأسًا منها ونرفع نخبًا سعيدًا، فوافق على الفور رغم علمه بضرورة نهوضه المبكر ليلتحق بعمله، ولكن أي عمل هذا ونحن في لُجة السعادة، مجتمعين فرحين مسرورين، ولا تسعنا الدنيا كلها بعد فراقنا الأول من نوعه الأليم والطويل.

احتسينا أنا وأبي الطيب بعض من أنواع الفودكا الروسية الفاخرة نوع (ستاليجنايا)، والكونياك الأرمني الشهير والعديد من الأنواع الأخرى التي لا أذكر حاليًا أسمائها، سكرنا وحلقنا بسعادة لا توصف إلى سماءات صافية، كانت لحظات لا تنسى، مرت الليلة الليلاء بسلام وهدوء دون أن يلحق بنا ساطور (أبو طبر) شرًّا أو أذى، تحدثنا كثيرًا ثم أسدل الليل ستاره علينا فاندسسنا في فراشنا وخلد الجميع واستسلموا بعمقٍ للنوم يعانقون أحلامهم الجميلة.

ليس على عادتي وإثر أحداث الليلة الفائتة العاصفة نهضت مبكرًا أخذت دوشًا باردًا، تمتعت بفطوري المحبب الذي حضرته والدتي الطيبة بسعادة كبرى، ارتديت ملابسي على عجل بعد أن أمطرتني أمي بعدة أسئلة عن سبب خروجي الباكر، نقشتُ قبلة حانية على جبهة أمي ولم أجب عليها بتعمد وعن حسن نية، وأخيرًا انطلقت فرحًا في مهمتي التي جئت من روسيا لأجلها.

شارع السباع ما زال بكرًا هادئًا لم تغتصبه أصوات طرق الحديد وأزيز اللحام بعد، أشرت إلى إحدى سيارات الأجرة توقفت بسرعة، أخبرت سائقها إلى الجهة التي أقصدها... سيارة الأجرة تمضي بنا مسرعة في شوارع بغداد الحبيبة بينما صوت المطربة الرائعة فيروز الرخيم يصدح ويدخل القلب دون استئذان، لفني الوجد لكِ يا بغداد الحبية وأضناني الهوى لصباحاتكِ الساحرة...

الهواء ما زال باردًا قليلاً ونقيًا، النسمات المنعشة تهب من كل جانب، الشمس تسعى أن تُهيمن على الصباح، أشعتها الدافئة تسقط بحنان تحاول أن تنفذ في جسمي وتتغلغل داخل عظامي التي قرصها وقلصها برد روسيا القاسي، عظامي تشتاق لفيتامين شمس بغداد كي تتمدد وتعود إلى حالها الأول، تحاول جاهدة لكن برد روسيا الذي طغى وتسيد عليها يقاوم التلاشي، يعاند، يتمنع، لا يقبل الهزيمة، ولكن أخيرًا تنتصر شمسنا الساطعة عليه ويقتحم الدفء جسمي وترتاح عظامي، تهدأ نفسي، يا لها من نشوة رائعة تساوي كنوز الدنيا بأجمعها.

السيارة تنهب الأرض وتصل بنا إلى ساحة الطيران التي تقع في قلب بغداد، الحركة فيها ليست على عادتها، العمال الذين اعتادوا افتراش الأرض بانتظار رزقهم اليومي اختفوا، السيارت التي تدور في الساحة الشهيرة عددها قليل، أصحاب عربات بيع المأكولات منهمكين في تحضير طعامهم استعدادًا لطلب الجائعين، الطيور البيضاء والرمادية هي فقط من لا يبالي بأبي طبر، إذ تجوب السماء بحرية ورشاقة تدور حول خزان ماء الشرب الكبير الذي ينتصب شامخًا على طرف الساحة العتيدة دون خوف أو قلق تطلق صيحات الصباح، البلابل كذلك تشدو بألحانها طربًا وتتزاحم فيما بعضها حول فتات خبز صغيرة.

يبدو أن جرائم أبو طبر قد أثرت بالفعل على حركة بغداد المعتادة، وأن ساطوره قد منع عن البغداديين نعمة النوم الهانئ، السيارة تتجه نحو ساحة الأندلس والسائق يطرب إلى صوت فيروز الشجي العذب يردد معها دون ملل أغنية (رجعت الشتوية)، لا يبدو عليه التعب أو الخوف، بينما في سري أغني بسرور غامر (ولت الشتوية وعادت الصيفية)، وفجأة يضغط السائق بقوة على الفرامل، تتوقف السيارة بعنف عند ناصية قيادة القوة الجوية، يلوي السائق رأسه نحوي تظهر على محياه ابتسامة خفيفة، ولا يزال يردد أغنية فيروز ويقول ها قد وصلنا، نقدتهُ فورًا ورقة نقدية عراقية كبيرة الحجم زرقاء اللون، شكرته وترجلت بسرعة.

ما أن رأيت جدران قيادة القوة الجوية حتى عدتُ بذاكرتي إلى ستة أشهر مضت، حين قدمت وثائقي إلى مديرية التدريب الجوي لغرض الالتحاق بالبعثة، حينها كانت كتل بشرية هائلة من الطلاب المتقدمين تتكوم وتتراكم فوق بعضها متدافعين نحو شباك التقديم، كما تذكرت لحظات السعادة التي خبرتها عندما علمتُ بقبولي في البعثة.

هؤلاء الطلاب منهم من ابتسمت له الدنيا ورحل إلى الاتحاد السوفيتي ثم دخل في نفق الغربة القاتل، ومنهم من عثر حظه في القبول وبقي ينعم في أحضان

العراق وحنان أهله، دخلت مديرية التدريب الجوي وتوجهت فورًا إلى شخص يدعى نائب ضابط حمزة وكان مسؤولاً عن أمور التدريب، ألقيت عليه السلام ثم طلبت منه أن يرشدني إلى كيفية عمل وكالة رسمية كي يستطيع والدي أن يتسلم جزء من راتبي، هنا وردت لذهني صور الفاقة والحرمان التي عشتها في طفولتي البريئة ومراهقتي القاسية بسبب الفقر القاتل، وأدركت أني وعائلتي قد تعدينا توًا هذه الحالة، ولن تعود إطلاقًا.

زودني حمزة، الذي قيل إنه كان عضوًا في حزب الدعوة وكان ينقل المعلومات إلى إيران وتم إعدامه لاحقًا؛ بالمعلومات والوثائق المطلوبة، شكرته بقوة وتوجهت على فوري نحو أقرب مصرف من موقع سكننا في شارع الكفاح كي أكمل إجراءات الوكالة.

ساعتان وأنجزت الوكالة بالكامل ولكن لم أنجز مهمتي بأكملها، أحسستُ أن أعصابي قد ارتاحت وهدأت سريرتي، وشعرت أني قد أوفيت بالتزاماتي تجاه بؤس أبي وشقاء أمي، وأعدتُ جزء صغير من جميلهم الكبير علي، وبذلك أصبح من حق أبي الحبيب الذهاب إلى البنك القريب جدًا عليه واستلام راتب شهري وهو خمسة وثلاثون دينارًا بالكمال والتمام.

عزيزي القارئ الكريم لابد أن تعرف أن راتبي الذي كنت أتقاضاه عام ١٩٧٣ أثناء فترة دراستي الجامعية في الاتحاد السوفيتي كان أكثر من ٨٥ دينار عراقي، ما يعادل ويزيد عن ثلاثمائة دولار أمريكي، علمًا أن الدينار العراقي المدعوم بالذهب آنذاك كان يساوي ثلاثة دولارات أمريكي ونصف، وهذا يعني أن مبلغ ٣٥ دينار عراقي التي سيتسلمها أبي كل شهر كان يزيد عن راتب موظف ذو شهادة جامعية والذي يتقاضى ٢٨ دينار عراقي شهري.

لم تنتهِ مهمتي بعد ولسوف أكملها وأزف البشرى لوالدي المناضل، سأذهب إليه كما فعلت سابقًا وقبل ستة أشهر حين تسلمت نتائجي المتفوقة في امتحانات البكالوريا النهائية، نعم سأتجه لمحله حالاً، بهمة وعزم مع شعور بالفخر وعزة

الوفاء بالجميل، سرت بسرعة نحو خان الشاه بندر حيث محل عمل والدي، أسرعت من خطواتي يلازمني شعور لا يوصف، إنه مزيج من السعادة الحقيقية مع الفرح الكبير والنشوة الغامرة، اعتراني شعور بالنصر على الفقر، تعديت المتحف البغدادي الرائع بواجهته التراثية الجميلة دخلت خان الشاه بندر من جهة شارع المأمون الذي يؤدي إلى جسر الشهداء من الفرع الضيق المتجه إلى خان الياهو دنكور، الجو أصبح أكثر سخونة، ولكن لهذا الممر الضيق صفة عجيبة إذ دائمًا ما يكون أكثر برودة لالتصاق سطوح أبنيته بعضها مع بعض حيث تهب فيه نسائم باردة ومنعشة.

واصلت سيري ولم تمضِ ثوان إلا وكنت انتصب في مدخل محل أبي، بوقار كان أبي يجلس على منضدته العتيقة، يشيح في عمله مرتديًا نظاراته القديمة التي بدت متلألئة بسبب انعكاسات ذرات الذهب المتراكمة عليها، يمسك بإنبوب ذهبي طويل يسنده على قطعة خشبية بارزة عن المنضدة العتيقة ويقوم بشحذه وصقله بمبرد حديدي ليجعله ناعمًا أملسًا بعد أن أكمل لحام حافتيه، من شدة تركيزه على عمله لم ينتبه أبي لدخولي، جلست على أريكة متهالكة مقابله، وتنحنحت كي لا أفزعه...

أخيرًا انتبه لي والدي الذي بدا نضر متورد الخدين، ابتسم، حياني ورحب بي بقوة، طلب لي كأسًا من الشاي إثر مرور بائع الشاي الشهير عند الصاغة الذي يدعى عزيز، وضع أبي إنبوب الحجل على المنضدة، نفض يديه من بقايا الذهب، غسل يديه بماء موضوع في وعاء بلاستيكي مفتوح كي يزيل الذهب العالق بيديه ويحتفظ به، رفع نظاراته وجعلها منتصبة أعلى جبهته، نهض بهدوء قبلني بحنان بالغ ثم جلس بقربي واضعًا إحدى يديه أعلى كتفي، أفصح لي عن بالغ سعادته لزيارتي رغم الفصل السخيف الذي مر لحظة وصولي إلى البيت، ضحكنا قليلاً، نظرت إليه بإجلال كبير وحب أكبر وقلت:

– يا أبي الحبيب إن تذكر قبل ستة أشهر حين جئت لك هنا ووضعت نتائجي المتفوقة في امتحانات البكالوريا بين يديك الكريمتين، أعتقد أنك تذكرها جيدًا – هنا هز أبي رأسه دلالة على الموافقة – واليوم جئت أيضًا كي أضع بين يديك هدية متواضعة أخرى، وكي أبرك وأرد جزء صغير من إحسانك الكبير وفضلك الأكبر وعطاءك الواسع علي...

توسعت عينا أبي الناعسة من الدهشة وانفرجت أساريره، وبان الفرح على محياه مما أقول رغم التعب الواضح عليهما لقلة النوم بسبب سهرتنا المتأخرة، مع التأثير الواضح لربع زجاجة عرق المستكي الذي يتناوله كطقس مقدس يوميًا، إضافة إلى تأثير زجاجات الفودكا والكونياك الأرمني الصغيرة وغيرها، وأخذ ينصت إليّ باهتمام بالغ، وبان عليه شوق كبير لمعرفة ماذا أخبئه له، وأضفت:

– واليوم يا أبي المناضل أقدم لك هديتي المتواضعة هذه (وضعت أوراق الوكالة الرسمية بين يديه) أرجو أن تقبلها مني.

– ولكن ما هذه الأوراق التي زرعتها توًا في يدي وتعرف أني لا أجيد القراءة...

نطق أبي بهذه الكلمات مُبتسمًا فأجبته بهدوء وثبات بعد أن غطت صفيحة رقيقة من السائل الصافي حدقات عيوني، التي ترنو إليه وتستدر عطفه ونعمته ورضاه:

– إنها وثيقة القفز على حاجز الزمن الأغبر، إنها يا أبي صك اللاعودة إلى الفقر والفاقة والحرمان، هذه الأوراق هي مفتاح عائلتنا نحو السعادة والاكتفاء الاقتصادي، إنها ببساطة معاهدة صلح مع المستقبل الآمن، هي صمام الأمان الذي يجعلك تقف بكبرياء الأنبياء صامد مرفوع الرأس حين تشح موارد عملك، إنها باختصار يا أبي أوراق الوكالة الرسمية التي عملتها لك توًا، والتي بموجبها تستطيع استلام مبلغ قدره خمسة وثلاثون دينار أزرق عراقي كل شهر وتعني

بمثابة راتب شهري جاري... وما عليك سوى أن تذهب بداية كل شهر إلى البنك القريب من هنا وإشهار هذه الأوراق كي تستلم الراتب، هذه هديتي المتواضعة كرد جميل لنضالك وكفاحك يا أبي فأرجو قبولها...

قلتها واضعًا يديه كعصفور بين يدي ومستجمعًا كل حنان الكون، قبلته في جبهته الناصعة... لم يتوقع أبي أن يحدث معه يوم ما مثل ما حدث الآن، نعم إنه مصدوم ومنبهر كليًا من الفرح، لا رد فعل له سوى النظر إلي بتعجب وذهول، الدهشة استولت عليه تمامًا وأفقدته التحكم... إنها لحظات الحقيقة التي تصدم الإنسان وتنفذ إلى داخله دون إرادته تشل حركته وتسحق ردة فعله، الزمن يكافئ من يكافح ويجتهد، الذي يزرع الطيب لابد أن يحصد ثماره، وبجدارة استحق أبي هذه الثمار، لم يعرف أبي كيف يتصرف إذ أن الحدث أسره واحتواه... ولكنه بتواضع الرُسُل قبلني في وجنتي وقال:

– شكرًا لك يا بُني، شكرًا لقد أفرحتني كثيرًا بفعلتك هذه... (نهض وضمني بقوة وقبلني بحرارة ثم قال) هذا عهدي بك...

– الآن يا أبي وبعد أن أنهيت مهمتي بالكامل وأرضيت ضميري؛ أستأذنك بالانصراف إلى البيت كي أبشر أمي الطيبة... قلتها ومسرعًا مضيت إلى البيت...

لا يفوتني إطلاقًا أن أذكر حدث مهم آخر يعطي لبر الوالدين مداه ومعناه الحقيقي، وذلك في بداية الفترة حين أصبحت ضابطًا في الجيش العراقي، وفي أخر يوم في الشهر الأول لخدمتي؛ تسلمتُ أول راتب لي كضابط وكان ٢٤٢ دينار عراقي، حينها فرحتُ فرحًا عظيمًا، وضعته في جيبي فخورًا مُختالاً، وبعد انتهاء الدوام الرسمي لي في قاعدة الحبانية توجهتُ ببزتي العسكرية إلى بغداد، وفورًا عرجت على مكان عمل أبي.

دخلتُ إلى الورشة وكان أبي مشغولاً جدًا بعمل أحد المصوغات الذهبية، حييته بقوة بعد أن قبلته عدة مرات ثم جلست لعدة ثواني كي ألتقط أنفاسي وأرتب

كلماتي حتى أخرجتُ راتبي الكامل من جيبي، أمسكته بيدي ونهضت ووضعته بيد أبي قائلاً:

– يا أبي هذا أول راتب لي كضابط في الجيش أضعه بين يديك الكريمتين وفاءً مني لجهدك الكبير وشقاءك الأكبر وكي أبر بك.

قبلته بحرارة على جبهته، نهض من مقعده بعد أن لمعت عيناه وأطلقت بريقًا حنونًا، احتضنني بقوة، قبلني بحرارة وأعاد المبلغ إلى جيبي قائلاً:

– شكرًا يا بني الله يوفقك ويمنحك الصحة الوافرة.

بفرح غامر مضيت إلى البيت.

opeikan.com